الفصل الأول
أخلاق وتعاليم البوشيدو

الفروسية ستظل مضرب الأمثال على مر الأجيال وكذلك أخلاق الفرسان، فاليابان من الدول التي تأثرت بها فاختلطت معانيها بكل ما هو ياباني سواء كان ذلك الأرض أو الجماد أو النبات حتى أصبحت الأرض لها مدلول نفسي وأثر قومي عند اليابانيين ساكنا في أعماقهم يتوحد مع أرواحهم منذ عهود بعيدة من السلف . تحمل بين ثراها مفاخر وصفحات من الماضي مملوءة ببطولات وأمجاد للأجداد لم تستطع الحضارة الحديثة بكل بهاءها وجبروتها النيل منها أو طيها في زوايا النسيان .فرغم تقدم عمرها إلا أنها ظلت كرجل بلغ أرذل العمر ويبقى رمزا لكل من حوله يلتمسون فيه كل القيم النبيلة تماما كالفروسية بأخلاقها السامية ويتوارث قصصها الآباء ويسلمونها للأبناء وينقلونها إلى الأحفاد وستظل متداولة من السلف إلى

الخلف. ستظل الفروسية نور الطريق للجيل الحالي نحو العزة والكبرياء ورمز الجمال والعامل الرئيسي في صنع الحضارة التي يحياها كل ياباني أصيل، والتاريخ زاخر بقصص فرسان ملئت أرجاء المعمورة شهرة من أقصاها إلى أدناها كفرسان المعبد في أوروبا المسيحية أو فرسان العرب في القرون الوسطى أو الساموراي في اليابان.

ويبدو أن سحر الحضارة الناعمة جرف كل الأمم بعيدا عن هذا الدرب القديم فلم تعد الفروسية كما كانت عليه بشكلها التقليدي أو طابعها الكلاسيكي، لذلك ترى الدول الآن تعد وتدرب جنودها للحرب والقتال بعيدا عن الفروسية التقليدية، وإنما تعني في تدريبهم خلق معنويات تحتاج هي إليها لرفع لواءها عاليا ولأسباب مختلفة. والظاهر انه لا مكان في هذه المعنويات لعناصر الأخلاق أو نزاهتها وإنما تشعرك هذه الدول أنها تربي جيوشا أشبه بكلاب الصيد يظلوا أوفياء لها بمبررات من الانحطاط والتدهور لا يمكن تصورها رغم بلوغهم ذروة الكمال في فنون الحروب والقتال، فلقد مضى زمن المحاربين الشرفاء في ظل حضارة جديدة انحرفت بنا إلى وادي بعيد ولونت كل ما حولنا بلون باهت عليه لمسة برود، إلا أن بعض الدول مازالت تكرم الفروسية القديمة بمنحها الأوسمة والنياشين بلقب (فارس) وهو تقليد جميل من الجيل الحالي، ويعتبر نوعا من أساليب التعايش والتكريم للقب بإدخال التعديلات اللازمة عليه. وهذا

التسلسل لمظاهر الحياة يكون مفيدا وعزيزا في نفس كل أمة . فوجدنا النفس اليابانية مازالت صامدة في وجه الحضارة، متطلعة إلى معاني الكبرياء المنشود فيها والتي تعبر بالنفس من ظلمة العجز إلى نور الطريق لأنها مازالت متمسكة بأخلاق الساموراي.

الفروسية لم تولد فجأة في اليابان ولكن هناك إجماع أنها ظهرت إبان العهد الإقطاعي، لذلك باتت الفروسية الابن النجيب لهذا العهد والبنت البارة التي تحمل كل القيم الجميلة منذ العهد المنصرم وحتى الآن، فأفرزت بطولات نادرة على مر الأجيال كانت المثل الأعلى لسمو الأخلاق ونهج يومي لحياة الأفراد والجماعات، كما كان لها أبلغ الأثر في حياة الأمة اليابانية عامة والتي للأسف لا يعرف الكثير من الناس عنها شيئا، والأسف هنا لأن عالم شهير مثل الدكتور/ جورج ميلر قد أنكر وجود الفروسية في التاريخ العالمي وأغلب الظن أن هذا يرجع إلى عدم المعرفة التامة بتاريخ الأمة اليابانية وربما لأنه غريب عنها جاهل بتراثها . والأغرب أن بطولة اليابانيين كانت سمة ظاهرة حتى وقت قريب وآثارها مازالت واضحة في الحضارة الحديثة تهديهم إلى الفضيلة والمثل.

وما يسبب الحيرة لبعض الباحثين الذين يتناولون تاريخ اليابان عدم وجود كتب مدونة أو وثائق مرجعية لعقائدهم مثلما هو الحال في الديانات الأخرى اليهودية والمسيحية والإسلام وربما ينظر العالم إلى

اليابان على أنها أمة متأخرة في الارتقاء الديني لهذا السبب، ولكن أنبرى مفكروها وعلماؤها لهذه الظاهرة فعرضوا مؤلفات ضخمة تحمل عاداتها وتاريخها ومذاهبها وعلاقتها بالأحداث الكونية الجارية والتي سنتناول منها عدة نقاط لتوضيح الآثار النفسية في تربية الطفل الياباني لينشأ منفردا عن باقي الأمم مؤمنا بترابه وتراث أجداده من الساموراي.

الفروسية عند اليابانيين هي البوشيدو (武士道) وتعني في الترجمة(بوشي– فارس)، (دو – طريق)، أي المنهج الذي ينبغي على الفارس أن يتخذه أسلوبا في حياته والأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها عند ممارسة هذه المهنة، ونظرا لصعوبة نقل أحاسيس الترجمة مهما كانت قدرة المترجم في التمكن من اللغة إلا أن الترجمة قد تقف عاجزة عن نقل معاني العبارات ذات الطابع الخاص ورنينها في النفوس تماما كما هو الحال في اللغات الأخرى مثل الفرنسية أو العربية أو أي لغة لها جذورها، لذلك فإن تفسير لفظة (بوشيدو) بمعناها المطلق لم يكتمل فيما ذكر، وسنحاول أن نقترب أكثر من معنى لفظة (بوشيدو) لأنها توضح لنا مناهج التفكير والتأمل في تكوين الشخصية عند اليابانيين. وأقدم معنى عرف عن كلمة الطريق ورد قبل زمن كونفوشيوس وهي كلمة (Tao) (طاو) في اللغة الصينية ومعناها طريق السلوك الذي قد يكون صالحا أو

طالحا في غير تمييز، ثم أطلق بعد زمن كونفوشيوس كمفهوم صوفي للدلالة على التركيب الأول للكون أو على شمول الأشياء كافة.

وهذه الفكرة الأخيرة راجعة بصورة عامة جدا إلى استخدام كنفوشيوس للعبارة، وهناك قليل من المقتطفات الأدبية تجعلها مقبولة ولكن يمكن أن يكون لهذه الفقرات أيضا تفسير مختلف. وإذا ما كان علينا أن نفهم فلسفة كونفوشيوس وأن نعترف أن الطريق لم يكن في نظره شيئًا صوفيا ولكن كان يقصد الطريق دون كل الطرق الأخرى التي يجب أن يسلكها الأشخاص وهدفه هو السعادة في هذه الحياة لكافة الجنس البشري. وأعتبر كونفوشيوس الطريق مطلقا كونيا وكان حريصا في مطالبته لطلابه بأن يلتزموا به دون انحراف ورفض نموذج الولاء الإقطاعي القائم على ولاء العبد لسيده وطالب بدلا منه بالولاء للمبدأ أو للطريق "[١٦] " وطالبهم بأن يكونوا في منتهى الحماسة وأن يكونوا على استعداد في كل الأوقات لأن يضحوا بأرواحهم في سبيل المبدأ .وقد فعلوا ذلك وعلى مدى القرون فأخرج كونفوشيوس مجموعة ضخمة من الذين قدموا حياتهم دفاعا عن الطريق مات بعضهم كثوار هبوا للحرب ضد الطغيان ومات غيرهم على يد منفذي أحكام الإعدام.[١٧]

---

[١٦] المقتطفات الأدبية ٨/٤

[١٧] المقتطفات الأدبية ١/١٩١٢٢/١٣/١٤

ودفعت الظروف الاجتماعية البائسة الناس إلى التصارع والاقتتال من أجل الحصول على المنافع، ونتيجة طبيعية لهذا الصراع بين فئات الشعب المختلفة في ظل ظروف قاسية ظهرت طائفة غلبت عليها ملامح البنيان القوى يحبون المغامرة والإقدام أشبه بالفتوات وأطلق عليهم عبارة بوكي (武家) أو بوشى (武士) ومعناها الفارس الذي يبطش بالناس دون هوادة، وبتعاقب الزمان ومرور الأيام أصبح لا مكان للشخص ضعيف البنيان أو الجبان لأن الرجولة الفجة القاسية والعنفوان كانا أهم ملامح هذه الفترة. وصفات (البوشي) أوالساموراي هذه والتي بفضلها كان يحصل على الامتيازات الاجتماعية والحقوق المشروعة أو غير المشروعة دون وازع من ضمير أو ميثاق ينظم الأصول، لذلك كان التزاحم شديدا والخلاف عظيما بين أبناء هذه الطائفة دون النظر لأدنى آداب الاختلاف أو الرفق بالعباد فتعاظمت النزاعات وكثرت فنون الجدال والخصام وأصبح القتال واستعراض العضلات هما السبيل للفوز بالمغانم أو المنافع في هذا الزمان.

وإبان العهد الإقطاعي في أواخر القرن الثاني عشر خاصة بعد سيطرة (يوريتومو) على موارد اليابان ومقدراتها، أسس يوريتومو مينامونو 源頼朝 Yoritomo Minanoto أول مقر إداري في مدينة كاماكورا جنوب طوكيو حاليا .وفى عام ١٢٣٢وضع أول

القواعد الحربية القانونية Gosei bai shikimoku 御成敗式
على مر العصور اعتبرت البوشى أو الساموراي مستودع إمداد الروح اليابانية بعناصر القوة . صحيح أن أمثالهم كانت نابعة من الصندوق الصيني ولكن بقدر، وكان الساموراي أشاوس كرسوا الروح اليابانية في واقع أعمالهم وتجاوزوا كل ما أخذوه عن الصين بأن جعلوه يابانيا وأصبحت كونفوشيوسيتهم هي المنظومة المركبة الهائلة للالتزام والواجب، وأصبحت بوذيتهم بوذية الزن
(禅) Zen وفي منتصف القرن السابع عشر سجل سوكو ياماجا 鹿山素行 (١٦٢٢-١٦٨٥) وهو عالم كونفوشى ومعلم عسكري أصول قواعد الساموراي لأول مرة، وأطلق على السجل اسم 武士道(بوشيدو) وهي لحظة نادرة في التاريخ. ونظرا لجسامة الأحداث وفوضى المعاملات التي سادت هذه الفترة كانت الضرورة ملحة لفوارس الإقطاعية للبحث عن نظام قانوني أو حكم يلجئون إليه إذا ما وقعت واقعة أو تجلى طيش أن يحتكموا إلى حكم أو موجه ينقذهم من الهلاك باتخاذ تدابير ناجحة في ظروف شاذة طارئة، حكم يحظى بالثناء والإجلال والإكبار بصرف النظر عن الألقاب التي تطلق عليه كنابغة أو مصلح أو مؤسس ليفصل بينهم في مشاحناتهم وينظم العلاقة التي تربطهم ويمنحهم السلامة ويكسبهم الصواب في أوضاع بائدة قديمة تسيطر عليها مفاهيم خاطئة وعقول

متأثرة بجهالات أو سخافات، فكانوا في حاجة لمناهج للخلاف وآداب للصراع حتى لا يكونوا فريسة للتآكل الداخلي فيما بينهم بعدما عصفت بهم الحياة في مهب الرياح، كذلك كانوا بحاجة إلى نظام للأخذ والعطاء المتبادلين يهدف إلى منع الساموراي وهم القتلة المحترفون المكرسون لفنون الحرب والقتال – من تدمير بعضهم البعض، وبمرور الوقت أصبح الشوجون 将軍 " الحاكم العسكري "يوجه الساموراي إلى ما يلبسون وكيف يحسمون مناوشاتهم ونزاعاتهم، وكيف يعدون الوجبات وأي أواني فخارية يستخدمونها في منازلهم، كل شيء حتى طرز الملابس الشخصية وألوان البيوت وكان موضوع الولاء واضح من أحاديثهم وفقا للقواعد واللوائح. وفي عام ١٦٥٦ بدأ سوكوياماجا Soko Yamaga في تعيين عدد كبير من الساموراي الذين اعتزلوا مهنة الحرب حكاما للأقاليم (شوجون) وانخرطوا في المجتمع، وعمد سكان المدن إلى إتباع إرشاداتهم ونصائحهم وأحكامهم إلى أن قتل قائدهم وكان أحد مريدي (سوكو ياماجا) فأصبحوا بعدها ثوارا بلا سادة في تلك الفترة فأنتقموا لقتل سيدهم الإقطاعي بادئين أطول أساطير اليابان عمرا عن ولاء الساموراي لسادتهم.

اعتمدت (البوشيدو) في قيمها وتعاليمها على مصادر عديدة بعيدة تماما عن الأديان السماوية، فاستنبطت التعاليم البوذية والعقائد

اليونانية القديمة التي تحاور الفطرة الروحية الدفينة في أعماق النفس البشرية والنائمة في قرار الضمير والتي تخاطب فيهم النخوة ليشعروا الفرسان بالفخر في الصراع، وعلمتهم أن يكونوا أصدقاء وأصحاب في المعاملات ولكن في الحروب عتاة جبارين، وهكذا انتظمت هذه الطائفة، وكانت السلامة والاطمئنان هي أولى الخطوات التي أرستها في نفوسهم تيارات الفكر العالمي الموجودة آنذاك، لذلك من الضروري إلقاء مزيد من الضوء على المصادر التي اعتمدت عليها البوشيدو في تكوينها .

المصادر التي كونت البوشيدو

أهم المصادر التي أثرت في تكوين (البوشيدو) هي الآثار البوذية والتي نادت بالثقة والوديعة واطمئنان النفس وهدوءها رغم الأخطار المحدقة بها، فجعلت كل منهم زاهد في الحياة فرحا باستقبال الموت، حتى أنهم بدئوا التنافس لإظهار هذه الروح التي بلغت حدا كبيرا من المهارة والإتقان نتيجة التدريب المستمر عليها والذي تلقاه الفرسان على يد معلمين أكفاء لدرجة أنهم فاقوا معلميهم في هذه الأفكار ببراعة واقتدار، الأمر الذي جعل بعض المعلمين يعهدون إلى الفارس بأن يتولى أمره (禅) (Zen) ومعناها في اليابانية أن يراجع نفسه بنفسه ويحاول الوصول إلى أعماق الفكرة والتأمل في خبايا الأشياء دون الالتفات لظاهر الكلمات أو إظهار

كلمات تعبر عن الجهود المبذول، تدريبات شاقة جعلت المعلم يعهد للفارس المجتهد أو المتقدم أن يعلم نفسه بنفسه، لأن التأمل في الأشياء يقود صاحبه حتما للوصول إلى حقيقة الكون والقوة المسيطرة عليه في تفعيل الأحداث والأيمان بها، تماما كما في الثقافة اليونانية الأوروبية حين سلكت طريق المعرفة المؤدي إلى الأخلاق[١٨]

وفكرة البوشيدو في الفلسفة البوذية هي التأمل للمعرفة ومنها يكون الطريق إلى الأخلاق، فإن الأيمان بقدرة العقل على تفسير الطبيعة معناه الثقة الكاملة بالعقل، هذا الأيمان الذي تأسس عليه منطق أرسطو بأنه مجموعة من القواعد إذا راعاها الإنسان عصمته من الخطأ وهو نفس الأيمان الذي تأسس عليه العلم الحديث والمعاصر، حتى (جاليلو) قال عن التأمل " أن قراءة الطبيعة تكمن في قراءتها بحروف الرياضيات." و(ديكارت) أسس فلسفته على البداهة العقلية، ومن قبلهم وبعدهم كثيرون، ف (هيراقليطس) و(أناكساجوراس) والفلسفة اليونانية والأوروبية طابقت بين العقل ونظام الطبيعة فقالت الفلسفة اليونانية " العقل يكتشف نفسه في الطبيعة التي هي ذاتها عقل، عقل بمعنى نظام وقوانين من خلال التعامل معها، وأضاف هيراقليطس" أن العقول البشرية تستطيع التوصل إلى معرفة صحيحة عن ظواهر الطبيعة إذا هي شاركت في

[١٨] فجر الفلسفة اليونانية "– ترجمة أحمد فؤاد الأهواني القاهرة ١٩٥٤

العقل الكلي للكون أي إذا اجتهدت في البحث في نظام الطبيعة وأدركت ما يتصف به هذا النظام من ضرورة وشمول " وصور العقل الكوني بأنه يتماشى مع الطبيعة ومنظم لها فهو بالنسبة للعالم أشبه بالنفس بالنسبة للإنسان، والنفس لا بوصفها جوهرا مستقلا متميزا عن الجسد بل بوصفها مبدأ لحركته منتشرا في جميع أجزائه ولذلك كان هذا العقل أشبه ما يكون بنار إلهية لطيفة أو نور لحياة العلم وقانونه وأن عقل الإنسان الفردي مطابق للقانون الكلي أي مطابق للعقل الكلي الساري في الكون[١٩]"

هذه المقارنة بين البنية الميتافيزيقية للعقل اليوناني كانت موجودة إبان نشأة البوشيدو ولكن تأثير تعاليم البوذية كانت أقوى في تأثر البوشيدو بها فقالت: أن التأمل يسمو بالإنسان فوق مستوى العالم بأخذه إلى أرض بعيدة عن الأرض الواقف عليها وإلى سماء أخرى غير التي ترفع فوقه، وعظمت التعاليم واجب الإخلاص للملك واحترام وجلال ذكريات السلف من الأجداد والطاعة لهم، وطهرت البوشيدو الفارس من التعالي المزيف وترى هذا بوضوح من خلال معابد (سانتو) التي تعكس صورة حقيقية لكل مبادئها حيث تراها خالية من البدع أو الإشارات الدينية فهي مجرد معابد فارغة ليس فيها إلا مرآة كبيرة أعلى الهيكل ترمز إلى قلب الإنسان وهو في كامل

[١٩] "رسائل أخوان الصفا " ج ٤ ص١٧٩ بيروت ١٩٥٧

طهارته وهى تعكس صورة الآلهة تنطبع في هذا القلب حين يقف لأداء الصلاة فيها، فيرى نفسه ناصعة في هذه المرآة كأنها تناديه للتعرف إلى نفسه بنفسه، وخففت هذه التعاليم من خشونتهم فأصلحت مفاهيم الرجولة وهذبت الأخلاق بأن طعمتها بشيء من الرقة واللين وغرست في النفس طهارة الروح الإنسانية لتتواصل مع العناية المسيطرة على الكون التي يلتمس فيها المثل العليا لضالة نفسه التي لابد لها أن تخشع وهي تبحث عن صدى صوت الآلهة التي تحث على الصدق والأمانة، وتجعل الإنسان ينظر إلى الغرائز في ترفع وينكر الخطيئة البشرية.

كثير من فلاسفة اليونان جعلوا العقل المتأمل هو الذي يبث النظام في جميع الأشياء ولم يتركوا أي شيء للصدفة فكل شيء له نظام وضرورة. وإذا كان هناك ما يبدو وكأنه مجرد مصادفة أي غير خاضع للحتمية والضرورة فليس ذلك راجعا إلا لعجزنا عن اكتشاف سببه، وأطلق فلاسفة اليونان على العقل لفظة (النوس)، والنوس ليس عقلا يفكر في العالم بتعالي، ولكن عقل أشبه بنفس الإنسان، أو كالنفس في الجسد بل هو نفس لكل ما لا نفس له، ولكن يبقى مستقلا عنها خارجا عن دائرتها، أو بعبارة أخرى إنه عبارة عن نفس مستقلة تتفرع منها نفس مستقلة وهكذا. وفلاسفة اليونان القدماء فسروا أن المنطق يحتاج إليه من الناس أولئك الذين ما تزال

نفوسهم مغمورة في الأجساد " أما النفوس الصافية الغير متجسدة فهي غير محتاجة إلى الكلام والتأويل في إفهام بعضها بعضا من العلوم والمعاني التي في الأفكار وهي النفوس الفلكية لأنها قد خلت من درن الشهوات الجسمانية"[٢٠] ودعا (سانتو) إلى الذهاب خارج حدود الجسد واختراق الطبيعة الأخلاقية لينعكس ذلك على النفس بعناصر من الهدوء والاطمئنان المقرونة بالمعرفة، واللطيف أن (مومسن) أجرى مقارنة بين العبادة عند اليونان والصلاة عند الرومان فقال" أن الرومان يصلون وهم ينظرون إلى السماء(أي أن هذه الطريقة في الصلاة مملوءة بالبحث والتأمل) أما عند اليونانيين فإنهم يصلون وهم ينظرون إلى أسفل، وهذه تدل على الصلاة العقلية والتفكيرية. ونلاحظ هنا التقارب بين عادات الرومان وعبادة (سانتو) التي بعثت في نفوس اليابانيين حب الوطن وحرمة أراضيه التي وصلت إلى حد التقديس والأيمان بأنها ليست أرض وتراب تزرع فيه النباتات وتقام عليها الصناعات إنما هي أراض مقدسة تحوى روح السلف وبين ثراها مراقد الآلهة، فيها قوة وجبروت تخرج منها تصعد إلى السماء فتتصل بها وتعود إلى الأرض لتبعث في النفوس حبا طاغيا ورمزا للإخلاص والوطنية ويضاعف مكانة الملكية لأنها تعتقد أن الملك مندوب السماء في الأرض، حتما

[٢٠] رسائل أخوان الصفا" ج ٤ ص ٤٠٢ بيروت ١٩٥٧

ستجد صعوبة في فرز الحديث من هذا الإبهام والغموض فهذه المعتقدات سميت بال (سانتريوم) نسبة إلى (سانتو) واستطاعت أن تغرز في صلب البوشيدو حب الملك والإخلاص له لأنها ملتصقة بالعقيدة عندهم ومتفاعلة مع نفوسهم فعشقوا التراب وتعلقوا بالوطن كواحدة من أهم سمات العقيدة فأصبحت ليست مجرد مذهب عقلي بحت كما هو الحال عند الكنيسة المسيحية وإنما بلغ الأمر عند البوشيدو إلى استسلامهم للطقوس المذهبية لتقرر برامج حياتهم اليومية في استقامة وبساطة.

تعاليم (كونفوشيوس) هي أكثر المصادر خصوبة وأفرزها مادة في استلهام البوشيدو لقيمهم وفضائلهم التي صنعت بحق أخلاق البوشيدو فهي التي نظمت العلاقات الخمس بين كل من :(الأب وأبنه وبين الأخوين والصديقين - والزوجين - والحاكم والمحكوم)، وجاءت هذه التعاليم متطابقة تماما مع الغريزة اليابانية وموافقة للتركيبة النفسية واندفعت هذه التعاليم الواردة من الصين عبر الحدود لليابان لترسخ في روح الفارس الساموراي الذي يجلها ويتفاعل معها . وإن كانت تحمل في طياتها نزعة أرستقراطية وولاء جم للطبقة الحاكمة إلا أنها باتت منهاج يومي وشريعة عقلية وليست مذاهب فلسفية، بل نهج للحياة يتماشى مع النزعة العسكرية للحياة في اليابان في ذلك العصر.

لم يكن الأمر كذلك فحسب بل أصبح المنقذ من البلبلة والحيرة التي سادت فكر البوشيدو في أول التكوين حتى جاء (منشيوس) بتعاليم فيها روح الديمقراطية التي أثلجت صدور اليابانيين وقوبلت بكثير من الود والارتياح عند شبابها وشيوخها، وكان لها الدور البارز في الخوض أكثر في فلسفة التأمل والمعرفة، فتوافقت وتعاليم كونفوشيوس لتصبح مؤلفات هذين المعلمين أعلى درجات المعرفة عند الأمة اليابانية لدرجة أرهبت السلطات الحاكمة فاستشعرت الخطر المحيط بها من هذه التعاليم وخشيت من ثورة تحطم الأوضاع الاجتماعية السائدة في عصر الإقطاع فمنعت وصول مؤلفات (منشيوس) إلى أيدي العامة بكل الطرق في محاولة لطمس بعض التعاليم أو إبعاد اليابانيين عنها إلا أنها باءت بالفشل .

حققت مؤلفات كونفوشيوس ومنشيوس كل القيم التي بحث عنها الياباني القديم فحملتهم إلى آخر حدود المعرفة حسبما اعتقدوا حين ذاك، وكان العلم وتمامه يقاس باستيعاب تلك المناهج فينعتون من لم يقرأ فيها أو يفهمها بالجهل ويصبون جمّ سخريتهم عليه، لأنها لم تكن مجرد دراسة ظاهرية وإنما ترتكز على الناحية العقلية لحديثها عن الجوهر والمادة، فأصبحت القوة العظمى والسلطة الأعلى لهذا الزمان فسيطرت على نفسية الأمة وأصبحت الملجأ الأزلي لهم في كل الأحوال والظروف.

هذه التعاليم صقلت الفارس الساموراي ليصبح هادئا لا يتعجل الحكم على المجهول فلا يمكن الحكم على شيء مختلف في تحديد ماهيته أو تصوير حقيقته كما لا يمكن الوقوف في الوسط أو بعيدا عن هذه الأحكام فلابد من التصور والتأمل الذي يزكي النفس ويرقى بالروح المادية وينهض بالجماعة . هذه التعاليم وثقت روابطهم بالحياة الروحية لدرجة أن العلم لا يصبح علما حقيقيا حتى يذوب فيه العقل تمام الذوبان وتظهر تصورات الفرد كل بحسب افتراضاته

شخصية (البوشيدو) اهتمت بإدراك الحكمة والسعي وراء المعرفة المجردة فكان لها رد فعل قوي للتفكر في الحوادث الفلكية والمعرفة الحقيقة، فورثت أفكار سقراطس في صورة تعاليم (كونفوشيوس) حيث قال سقراطس " أن العلم والعمل كلاهما أمر واحد لا يتجزأ "، ووضع البوشيدو أقدامهم على أرض ثابتة ووجدوا الجرأة والشجاعة أن يلمسوا بأيديهم ويختبروا بأنفسهم ما كانوا يعالجونه طويلا من خلال الفكر النظري وحده وهالهم اختلاف النتائج بين ما تسوقه تجارب الآخرين وما تحت أيديهم من معلومات أكيدة وليدة التطبيق ، فأنتشر حب التجربة وهوجمت كل النظريات المعاكسة وسيطرت تعاليمهم على كافة الفروع وأرتفع صوتهم ضد كل مخالف وساعدهم في ذلك الشبه الغريب بين هذه التعاليم ووصايا (وان يانغ مينغ) عن حقيقة الوجود الطبيعي وتصورات

الإنسان عن نفسه دون أن تؤثر فيه الطبيعة المنثورة حوله، عقل الإنسان بكل ما فيه من معرفة وليدة الطبيعة تتمثل في الوراثة والبيئة والحياة الاقتصادية والاجتماعية، يفكر ويتفاعل مع الوجود المحيط به فيكون مقيدا مجبرا وصانع القيد والجبر هو الحياة المادية.

وروي أن في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ذكر ارسطاطليس وتعاليمه فقال صلى الله عليه وسلم (لو عاش حتى يعرف ما جئت به لأتبعني على ديني) .[٢١]

لابد هنا للعودة لأفكار (اليونان) وفلسفة الرواقيين من هراقليطس حتى أفلاطون وأرسطو ومهما يكن من أمر الاختلاف بين تصور كل من اناكساجوراس عن العقل أو(النوس) و الذي كان وراء ثورة سقراطس وفلسفته بأن العقل الكلي وانفصاله واستقلاله لا يغير من جوهر التصور اليوناني للعلاقة بين الطبيعة وهذا العقل الكلي الذي يتنزل منزل الإله في الديانات التوحيدية، والفعل العقلي الجدير بهذا الاسم هو إدراك النظام والترتيب بين الأشياء في الفلسفة اليونانية عموما، فالطبيعة بأسرها قابلة لأن يتعقلها العقل على الرغم مما يكتنفها من فوضى ويرافق حوادثها من غموض، ذلك لأن العقل بمعنى النظام وهو أساسها ويقول (مالبرانش) " أن العقل الذي

---

[٢١] Melebranche Recherche de la verite in oeuver completes، 7 vol، Vrin 1985

نهتدي به عقل كلي، عقل دائم وضروري وإذا كان صحيحا أن هذا العقل ضروري ودائم وثابت لا يتغير فهو لا يختلف على الله[٢٢]

صفحات (وان يانغ مينغ) تحدثت عن أن الإنسان لابد أن يبحث أولا عن عرش السماء وعدله، وعندئذ سيصبح كل ما في الكون تحت أمرك وملك يدك، وصفحة أخرى يذكر فيها " أن رب السماء والأرض وكل الكائنات تسكن قلب الإنسان فتصبح روحه وفكره، والروح الإنسانية هي الشيء الحي الباقي والنور الأزلي الخالد . الروح الإنسانية هي الطهارة والنقاء وفوق مستوى التأثر بإرادة الفرد فهي تعمل بحركة لاشعورية للتعرف على الخير من الشر وتصقل الضمير وتكون الشعاع القادم إلينا من نور السماء .

هذه الكلمات الروحية المتصوفة الموجودة في تعاليم (وان يانغ مينغ) وجدت في تعاليم (سانتو) التربة الممهدة والاستعداد القوي في العقلية اليابانية لقبولها والتغلغل في الأيمان بها لتوافقها مع الأحداث لدعوتها بعصمة الضمير الإنساني وتجاوزها لكل الآراء التي كانت موجودة آن ذاك، فكان صواب رأيه بأنه لا شيء خارج حدود المعرفة الإنسانية، وإن كانت هذه النظرية تحتمل بعض الأخطاء في مذاهب العقليين إلا إنها كان لها آثارها المهمة في إرساء العقائد

---

[٢٢] ليجي في كتابه" الملك شو" ص ٩٣ – ٢٩٣

الدينية وكان لمبادئها الأخلاقية الحظ الأكبر في الاعتراف بالتساوي الروحي وتنمية الشخصية الخلفية.

نخلص من هذا أن البوشيدو برغم مصادرها المحدودة وبساطة المآخذ التي نقلوا عنها إلا أنها استطاعت أن تعد عقلية حازمة تواجه الحياة بقوة رغم الاضطرابات والخطر والفوضى المحيطة بها التي كانت سائدة في تلك العهود، أما أجدادهم البسطاء فاستلهموا غذائهم الروحي من التعاليم الأبسط والأكثر تنوعا فأخذوا منها بقدر احتياجاتهم اليومية. لذلك كان أسلوب الرجولة عندهم متماشيا مع صفات العصر الموجودة فيه والذي تفشت فيه الفوضى التي كانت ترتع في أرجاء البلاد والنزاعات والحروب الأهلية وتسلط الحكام،كل هذه العوامل خلقت روح الثأر والقصاص في نفس الياباني القديم وخلقت جيلا له قدرة خاصة على احتمال الآلام والإقدام على الأعمال العنيفة ،وأفرزت الحياة الخشنة التي سادت القرن السادس عشر عقلية يابانية جديدة مازالت خصائصها باقية إلى الآن في التقارب الغير عادي في طريقة التفكير والطبيعة الأخلاقية اليابانية.

جيل القرن السادس عشر في اليابان كان أقرب شبها بالجيل الذي عاش في إيطاليا الفاشية والتي استخدمت السلطات كافة الأسلحة الدموية والمعنوية في صراعها مع الطبقة الأكثر عددا والأسوأ حالا والتي غالبا ما كانت تنتهي لصالح هذه الطبقة البائسة

وقد ذكر (كارل ماركس) أن صراع الطبقات حقيقة تاريخية متأصلة في طبيعة نظامنا فلا حاجة للدعوة إليها ولا جدوى من إنكارها ولكن مسئولية الحرب تقع على عاتق من تدفعهم الأنانية للحفاظ على ما يملكون، لذلك ظهرت الفردية العميقة والشخصية المتطرفة في الاستقلال في أوروبا بخلاف الحياة والعادات في اليابان. أما (نيتشه) أراد أيضا أن يبين الفرق بين العادات والمفاهيم المختلفة في الشرق الأقصى فقال " أن المتحدث عن آسيا قد يعني سهولها وأوديتها المنبسطة الواسعة أما الحديث عن اليابان فيكون عن جبالها وشعابها الشاهقة " . إشارة إلى قيمها التي لم تتزعزع .

خلاصة ما سبق الحديث عنه في هذا الفصل أن كل هذه المتغيرات التي اعترضت طريق الأمة اليابانية كونت شخصية منفردة تستحق الدراسة والتحليل وأهم ملامح هذه الشخصية هي الحزم والعدل الذي سنتحدث عنه بإسهاب في الفصل التالي.